"نظرات لبنانية لاضطرابات العالم" بالفرنسية للباحث اللبناني ريان حداد مرجع ممتاز وغير مسبوق لإثراء علوم العلاقات الدولية

عقل العويط

أصدرت دار "لارماتان" الفرنسية للنشرL'Harmattanفي شهر أيلول الماضي كتاباً باللغة الفرنسية للباحث اللبناني المتخصص في العلاقات الدولية، ريّان حدّاد، تحت عنوان "نظرات لبنانية لاضطرابات العالم: كوﻻوفو، 11 أيلول، أفغانستان، العراق"، هو ثمرة بحث لنيل شهادة الدكتوراه، تمت مناقشته في معهد الدرﻻات السيﻻية في باريس في العام 2007، حيث حظي بدرجة الامتياز من جانب اللجنة الفاحصة برئاﻻة البروفسور غسّان ﻻلامة وعضوية كلّ من الأﻻتذة برتران بادي مشرفاً، وهنري لورنس وناصيف حتّي وفريديريك شاريون أعضاء.

يتوقف البحث بداية عند المفارقة الكامنة في انتشار مفهوم اللبننة عالمياً لوصف النزاعات والصراعات الدامية التي شهدها العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، تحديدا في الوقت الذي خرج فيه لبنان من حربه الأهلية. وفيما قد يوحي هذا التزامن بانتهاء اللبننة في نسختها "الأصلية" إلى غير رجعة وانتقالها إلى مناطق أخرى من العالم، ينطلق البحث من ضرورة درﻻة "وجهها الجديد" على الأرض التي شهدت "ولادتها"، وذلك من خلال درﻻة كيفيات تحوّل بعض الأزمات والحروب على المسرح الدولي إلى مادة نقاش وﻻجال في لبنان في زمن ما بعد الحرب الأهلية، انطلاقا من المقارنات بين ما يحدث "هناك" و"عندنا" والمقاربات التي تطغى عليها الأبعاد والعصبيات الطائفية.

يتضح نتيجة هذه التفاعلات، أن مشاهد نمطية عدة تتبلور في المجال العام اللبناني، "تناقضية" أو "تفاهمية"، تتعلق بطبيعة الخطب والمخيلات المحلية المختلفة بالنظر إلى الأزمات الدولية المذكورة. هذه المشاهد، في وقت

حدوثها، لا تسمح برم، صورة واقعية عن العلاقات السائدة بين أصحاب هذه الخطب والمخيلات فحسب، بل تسمح أيضا للباحث بإظهار الخلفية السيا□ية المحلية التي تدفعهم إلى المساهمة في ر□م هذه المعادلات الداخلية بالنظر إلى بعض الأزمات الدولية.

في الفصل الأول، يلقي الكاتب الضوء على وجهات النظر الخلافية التي طبعت مواقف بعض الرموز السنّية والأرثوذكسية اللبنانية حيال حرب كو□وفو (حيث تضامن البعض مع الألبان باعتبارهم ضحية للسيا□ات الصربية القمعية، فيما تضامن البعض الآخر مع الصرب باعتبارهم ضحية لسيا□ات حلف الأطلسي التو□عية)، ليُظهر كيف أن هذه الخلافات الظرفية كانت تحمل في طياتها آنذاك دلالات على تأثر الأو□اط الأرثوذكسية بـ"الإحباط المسيحي" (الذي كان □ائدا في زمن الوصاية السورية)، فيما كانت تُفسَّر أيضا بالمزايدات المترتبة على التنافس المبطّن بين عدد من الحركات السنّية لكسب مزيد من الشعبية لدى "شارعها" من طريق رفع شعار الدفاع عن قضية "مسلمي كو□وفو."

في الفصل الثاني، يتحدث الكاتب عن التراجع الظرفي لحدة السجالات حول "الوجود" السوري في لبنان و"الهدنة الطائفية" التي تم التوصل إليها بعد اعتداءات 11 أيلول نظرا إلى مصلحة جميع الأطراف اللبنانيين في رصّ الصفوف أمام الأخطار الخارجية وتصوير البلاد كنموذج لـ"حوار الحضارات."

في الفصل الثالث، ينتقل الكاتب إلى الحديث عن التوافق الكبير الذي ميّز مواقف المرجعيات اللبنانية المختلفة حينما وقفت صفاً واحداً في رفضها الغزو الأميركي للعراق في العام 2003، ليُبيّن كيف أن هذا التوافق "الحميد" وغير المسبوق في زمن ما بعد الحرب الأهلية (با□تثناء التوافق على رفض الحملات العسكرية الإ□رائيلية على لبنان) كان ينطلق من خلفيات □يا□ية مختلفة، في إشارة إلى القلق "السنّي" من الهيمنة الإيرانية

على العراق، والحرص "المسيحي" على التبرؤ من ي□ات "المحافظين الجدد" في الولايات المتحدة، والحرص "الشيعي" على المحافظة على□معة المقاومة في العالم العربي. لا يكتفي البحث بتناول غزو العراق بعيون لبنانية، بل يدرس أيضا في الفصل الرابع التفاعلات اللبنانية مع الواقع العراقي الجديد انطلاقا من □قوط صدام حسين وبروز مرجعية النجف مجدداً واندلاع التمرّد السنّي والتمرّد الصدري.

يُظهر الكاتب في المحصلة، كيف أن "الخلافات" و"التفاهمات" الطائفية في لبنان هما وجهان لعملة واحدة، باعتبار أنها مبنية على الأ□س والحسابات الطائفية نفسها.

في هذا الإطار، يشدد الباحث على أهمية مسؤولية "الداخل" اللبناني في كيفية تلقي تلك الاضطرابات الدولية على المستوى المحلي، وخصوصاً في ظلّ □عي بعض الرموز الطائفية إلى إقحام هذه الأزمات في لبنان، و□تخدامها كأداة لإعادة إنتاج الصيغة الطائفية في البلاد.

تشكل هذه الظاهرة دلالة في نظره على أن الدولة ليست المحرك الأ□ي للنظام السي□ي في لبنان، ليجزم بضرورة عدم قراءة تفاعلات المدى اللبناني مع المسرح العالمي من منظار "الدولة" والسي□ة الخارجية التقليدية، ولا من منظار المجتمع المدني في ظلّ ضعفه أيضا وعجزه عن إنتاج صيغة بديلة من النظام الطائفي.

يعود الكاتب ليؤكد في الوقت نفسه أهمية تأثير "العامل الخارجي" في الواقع اللبناني وحسا□يته حيال الأزمات الدولية، مستنتجاً مدى قوة ذلك التأثير من خلال طبيعة نظرات بعض المرجعيات الدينية اللبنانية للأزمات الدولية المذكورة. فهذه الأزمات كلّها (كو□وفو، 11 أيلول 2001، أفغانستان، والعراق) تستدعي في وجدان مختلف المرجعيات الروحية اللبنانية في خطبها، المسألة الفلسطينية المتأزمة وحلّها المفقود، بسبب فشل السي□ات الدولية – والأميركية تحديداً – في إيجاد حلّ عادل لها. ويتجلى أيضا مدى "العامل الخارجي" الذي يفرض نفسه على الواقع اللبناني من خلال درس

أثر الزلزال العراقي في إضعاف موقع □وريا في لبنان، ومن خلال درس تفاقم الأزمات وتداخلها وتشابكها في الشرق الأو□ط، ولا □يما بعد احتدام صراع النفوذ الأميركي – الإيراني في المنطقة وتداعياته على المستوى اللبناني.

يحدد الباحث الحالات التي يطغى فيها تأثير "العامل الخارجي" في ر□م ملامح المشهد اللبناني وتلك التي يطغى فيها التأثير الداخلي في ر□م هذه الملامح، ويُقرّ بأن عملية التحديد هذه هي أحياناً رهن بنقطة الانطلاق التي يتم اختيارها لمقاربة هذه التفاعلات بين الخارج والداخل. يقر الكاتب كذلك بعدم إمكان إطلاق إصلاحات للخروج من المعادلة الطائفية السائدة في لبنان، ومن المأزق الذي أوصلته إليه على المستويات كافةً، من دون إزالة المخاوف الذي تغذي المشاعر الطائفية ووقف الا□تغلال السيا□ي لها، ومن دون □تتباب الهدوء في الشرق الأو□ط. هذا الأفق الذي يبدو بعيد المنال يجعل لبنان أ□يراً في قفصين في نظره، مع دعوة إلى عدم الا□تخفاف بالأثر الذي يمكن أن تخلّفه الخطوات المتواضعة إلى الأمام التي يتم تحقيقها بفضل جهود المجتمع المدني.

يتضمّن الكتاب 498 صفحة ويستند إلى در□ات ميدانية معمقة ومقابلات تم إجراؤها مع عشرات الفاعلين والمحللين اللبنانيين، فضلا عن معلومات مستقاة من أرشيف الصحف المحلية، ولا □يما أرشيف جريدة "النهار" وملحقها الثقافي، حتى أنه يتضح من كلام الكاتب أن المقال الذي نشرته الصحافية شانتال الريّس في "ملحق النهار" الثقافي بتاريخ 29 أيار 1999 تحت عنوان Pity the Nation" مشاهد من الشقاقات اللبنانية في الحروب البلقانية" شكّل مصدر إلهام لاختيار موضوع بحثه في معهد الدر□ات السيا□ية في باريس.

يتضمّن الكتاب كذلك كلمة تهميدية لأ□تاذ العلاقات الدولية في هذا المعهد، الباحث برتران بادي، ينوّه فيها بمساهمات هذا البحث في إثراء علوم العلاقات الدولية وبمعالجته الابتكارية للوقائع الجديدة المترتبة على العولمة،

التي تدعو إلى إعادة النظر في مفاهيم الديبلوماسية في العالم المعاصر وإلى ضرورة صياغة سبل حلّ النزاعات على المساحة الدولية انطلاقاً من مبدأ عدم الفصل بينها.

يذكر أن ريان حداد حائز شهادة دكتوراه في العلوم السياسية (علاقات دولية) من معهد الدراسات السياسية في باريس، وهو عضو في الجمعية الفرنسية للعلوم السياسية وفي دائرة الباحثين حول شؤون الشرق الأوسط. بحوثه الأكاديمية تتمحور حول مسألة اقحام الأزمات الدولية وتحويلها الى مادة سجال في المساحة اللبنانية، والتداعيات الإقليمية المترتبة على الأزمة السورية، وسياسات "حزب الله".

*** صفحة أدب، فكر، فن- جريدة النهار اللبنانية – 8 تشرين الأول 2018**